



سأحكي لكم قصة رجل من عباد التابعين[1]:

كان زاهداً عابداً، شديد التقشف، مجاهاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صداعاً بالحق في وجوه الأمراء الظلمة.

سمع مرة زياد بن أبيه يقول: لاخذن البريء بالسقيم والجار بالجار، فقال: يا زياد، إن الله يقول: {ولا تزر وازرة وزر أخرى}، فحكم الله خيراً من حكمك، فقال زياد: إنا لا نصل إلى ما نريد إلا ببعض الإغماض. وفي رواية أن زياداً قال: [لا نصل إلى الحق فيكم، إلا ببعض الباطل].

بلغ من رقة قلبه: أنه مر يوماً ببعير قد طُلي بالقطран، ليشفيه ذلك من الجرب. فلما رأى القطران، غشي عليه، ثم أفاق، ثم تلا قوله تعالى {سرابيلهم من قطران}.

وبلغ من شدة وفائه: أن الأمير الظالم سجن عدداً من المتهمين بالتأليب على السلطان، وكان هو منهم. فكان السجان يأخذ له في الليل بالذهاب إلى منزله، لشدة اعتقاده في صلاحه. حتى جاء يوم أمر فيه الأمير بقتل كل من في السجن إذا أصبح الناس، وشاء خبر هذا الأمر في البلد، فلما طلع الصباح، فوجئ السجان برجوعه، مع علمه بأنه سوف يُقتل. فشفع فيه عند الأمير، فأذن له باستثنائه وعدم قتله.

ولشدة تعبده تدعوه طوائف متناقضة، كل طائفة تقول: هو منا!

سمعه مرة الحسن البصري يعظ، فقال عنه: «ذكر الإسلام، مما سمعت ناعتاً للإسلام كان أبلغ منه».

ويروي أصحابه له من الكرامات: أنه لما عزم على نصرة الحق ضد الولاة الظلمة، رفع يديه، وقال: «اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية». قالوا: فرجف البيت. وقال آخرون: فارتفع السقف.

وكان سبب عزمه على نصرة الحق أن امرأة من العابدات، يقال لها: البلجاء التميمية، وكانت تأمر وتنهى وتعظ وتنتقد على السلاطين وتعين المنكرين عليهم، فأخذها الوالي وقطع يديها ورجلتها، ورمي بها في السوق، حتى ماتت!!

فَلَمَا نَظَرَ إِلَيْهَا لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا مِنْ مِيتَةٍ أَمْوَاتُهَا أَحَبُّ إِلَيْيَّ مِنْ مِيتَةِ الْبَلْجَاءِ، كُلُّ مِنْيَةٍ سُوَى مِنْيَةِ الْبَلْجَاءِ ظَنُونٌ.
وَعَزَمَ عَلَى الغَضْبِ لِلأَغْرِاضِ، وَأَنْ يَتَبرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ هَذَا الظُّلْمِ؛ بِأَنْ يَعْتَزلَ النَّاسَ. فَخَرَجَ إِلَى مَنْطَقَةِ خَارِجِ الْبَلْدِ يَقَالُ
لَهَا (آسَك)، مَعَهُ أَرْبَعُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ. وَأَمْرَهُمْ أَنْ لَا يَقْاتِلُوا إِلَّا مِنْ قَاتِلِهِمْ، وَأَنْ لَا يَأْخُذُوا مِنْ مَالِ الدُّولَةِ إِلَّا بِمَقْدَارِ أَعْطَيَاهُمْ
الَّتِي يَسْحَقُونَهَا.

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ أَلْفِينَ مِنَ الْجُنُودِ بِقِيَادَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسْنِ التَّعْلَبِيِّ، فَهُزِمُوهُمْ هُوَ وَأَرْبَعُونَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ.

حَتَّى قَالَ شَاعِرُهُمْ يَشْمَتُ بِالْأَمِيرِ وَجِيَشِهِ الْمَهْزُومِ مِنْ عَدَدٍ قَلِيلٍ:

أَلْفًا مُؤْمِنٌ مِنْكُمْ زَعْمَتْ... وَيَهْزِمُهُمْ بـ(آسَك) أَرْبَعُونَ

كَذَبْتُمْ لِيَسْ ذَلِكُمْ كَذَاكُمْ... وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَا

هُمُ الْفَئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ... عَلَى الْفَئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَا

وَكَانَ هَذَا الْعَابِدُ يَقُولُ:

يَا طَالِبَ الْخَيْرِ نَهَرُ الْجُورِ مَعْتَرَضٌ... طَوْلُ التَّهَجُّدِ أَوْ فَتَّكُ بِجَبَارٍ

لَا كُنْتَ إِنْ لَمْ أَصْنِمْ عَنْ كُلِّ غَانِيَّةٍ... حَتَّى يَكُونَ بَرِيقُ الْحُورِ إِفْطَارِي

وَهُوَ الْفَائِلُ أَيْضًا:

إِنِّي وَزَنْتُ الَّذِي يَبْقَى لِأَعْدَلِهِ *** مَا لِيَسْ يَبْقَى فَلَا وَاللَّهِ مَا اتَّزَنَا

خَوْفُ إِلَهٍ وَتَقوَى اللَّهُ أَخْرَجَنِي *** وَبَيْعٌ نَفْسِي بِمَا لَيْسَتْ لَهُ ثَمَنًا

ثُمَّ إِنَّ الْأَمِيرَ أَرْسَلَ لَهُمْ جِيشًا آخَرَ بِقِيَادَةِ عَبَادِ بْنِ أَخْضَرِ، فَقَاتَلُوهُمْ أَجْمَعِينَ، وَقِيلَ: إِنَّهُ قَاتَلَهُمْ غَدَرًا، وَهُمْ يَصْلُونَ الْعَصْرَ سَجَدًا
رَكْعًا. فَقَالَ رَأْيِهِمْ:

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةُ إِلَى بَغْضَا... وَحْبَا لِلْخَرْوَجِ أَبُو بَلَالٍ

أَحَذَرُ أَنْ أَمُوتَ عَلَى فَرَاشِي... وَأَرْجُو الْمَوْتَ تَحْتَ ذَرَّا الْعَوَالِي

وَلَوْ أَنِّي عَلِمْتُ بِأَنْ حَتَّفِي... كَحْتَفُ أَبِي بَلَالٍ لَمْ أَبْالِي

فَمَنْ يَكْهُمُ الدُّنْيَا فَإِنِّي... لَهَا وَاللَّهُ رَبُّ الْبَيْتِ قَالَ

وَفِيهِ يَقُولُ:

أَصْبَحْتُ مِنْ وَجْلٍ مِنِّي وَإِيجَاصٍ... أَشَكُو كَلْوَمَ جَرَاحَ مَا لَهَا آسِي

يَا عَيْنَ بَكِي لِمَرْدَاسِ وَمَصْرَعِهِ... يَا رَبَّ مَرْدَاسِ اجْعَلْنِي كَمَرْدَاسِ

تركتنى هائماً أبكي لمرزئتي... في منزل موحش من بعد إيناس

أنكرت بعده من قد كنت أعرفه... ما الناس بعد يا مرداس بالناس

إما شربت بكأس دار أولها... على القرون فذاقوا جرعة الكأس

فكل من لم يذقاها شارب عجلاء... منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

وكان مقتله سنة 58 هـ.

لا تستعجلوا الحكم!

هل تعرفون من هذا الرجل العابد الزاهد الغيور؟

إنه أحد رؤوس الخوارج !!!

إنه أبو بلال مرداس بن حدين، الشهير بمرداس بن أدية (أدية هي أمه) التميمي!

وهو أحد رؤوس الخوارج على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن القلة الذين نجوا يوم النهروان.

هل تصدقون ذلك؟!!

هو كذلك، مع صدق عامة الأخبار التي ذكرتها سابقاً عنه تاريخياً.

فدعونا نعرض ما سبق على الحق، بعدما عرفنا الرجل بانتهاج منهج الخوارج، وأنه لم ينج من تكفيره حتى الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى رأسهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أما كثرة العبادة: فهي صفة الخوارج التي بينها لنا رسول الله عليه وسلم.

وأما حسن الكلام في الوعظ الذي ذكره الحسن البصري، فهي أيضاً صفتهم في صحيح السنة: «يقولون من قول خير البرية، لا يجاوز حناجرهم». فليس حسن الوعظ من دلائل العلم، ولا من دلائل الإيمان؛ فضلاً عن أن يدل على صحة المنهج.

وأما إنكاره على النساء الظلمة: فهو على غير وفق الشرع، مع كون النساء كانوا أيضاً على غير وفق الشرع (ظلمة مستبيحين للدماء بالقتل، لا بالتكفير). وكون إنكار مرداس وربعه من الخوارج على غير وفق الشرع، يبينه أنه قد يقع الإنكار منهم على أحد الوجوه التالية:

(1) إما لقيام إنكارهم على التكفير بالمعاصي، والتكفير بالمعاصي من أعظم البدع والمنكرات وأشدتها سوءاً على الأمة.

(2) وإما لاستباحتهم الدماء بغير حق. وهو ما ذكره هذا الخبر المروي بإسناد حسن عندي (لأنه من طريق علي بن زيد بن جدعان عن الحسن البصري)، يقول الحسن: «أتيت قدامة بن عزنة العنبرى، فوافقت عنده مرداساً أبا بلال، ونافع بن الأزرق، وعطية بن الأسود، قال: فتكلم مرداس أبو بلال، فذكر الإسلام - قال الحسن: فما سمعت ناعتاً للإسلام كان أبلغ منه - ثم ذكر السلطان فنال منهم، وذكر ما أحدث الناس، ثم سكت.

ثم تكلم نافع بن الأزرق فذكر الإسلام فوصفه فأحسن، وذكر السلطان فنال منهم، ثم ذكر ما أحدث الناس.

ثم تكلم عطية بن الأسود فذكر الإسلام فوصفه فأحسن، ولم يبلغ ما بلغ نافع بن الأزرق، وذكر السلطان فنال منهم، ثم ذكر ما أحدث الناس.

قال الحسن: فقال قدامة بن عنزة لبعض أهله: ساندني، فقال: إخواني، كل الذي قلتم منذ اليوم أعرف منه مثل ما تعرفون، وأنكر منه ما تنكرون، وأنا مثل الذي أنتم عليه، ما لم تشهدوا علينا السلاح، فإذا شهرتם علينا السلاح، فأنا منكم بريء. وكلهم شهر السلاح، وكان من رؤوس الخوارج.

(3) وإنما لا يصح فيه الإنكار، لكونه مما لا يحرم. كما ثبت عنه من طريق زياد بن كُسْبَيْنِ الْعَدُوِّيِّ، قال كنت مع أبي بكرَةَ (رضي الله عنه) تحت مِنْبَرِ عبد الله بن عامرٍ وهو يخطُبُ، وعَلَيْهِ ثِيَابٌ رِقَاقٌ، فقال أبو بلالٍ مرساس بن أدية: انظروا إلى أميرِنَا يلبَسُ ثِيَابَ الْفُسَاقِ، ويعظ!! فقال أبو بكرَةَ: اسْكُتْ، سمعت رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((من أهانَ سُلْطَانَ اللهِ في الأرضِ، أهانَ اللهَ)).

(4) وإنما لا يصح فيه الإنكار، لكن بطريقة تزيد من المفاسد ولا تنقصها.

أما إنكار المنكر على أمير أو غيره بالطريقة التي لا تؤدي إلى مفسدة أكبر من المنكر، ويقدر المصلحون عليها = فهو واجب لا علاقة له بإنكار الجهلة المدفوعين بالحماس الخالي من العلم.

وأما كرامته المزعومة، فانظر كيف فهمها أحد أئمة السف، ممن كان يصادق أبا بلال مرساساً، وينصحه بعدم الخروج، أعني: أبا العالية الرياحي. فقد جاء رجل من الخوارج فذكر تلك الكراهة المزعومة التي يقال إنها وقعت لمرساس من أنه دعا قائلاً: اللهم إن كان ما نحن فيه حقاً فأرنا آية، فرجف البيت. وقال آخرون: فارتفع السقف. فلما حكاها ذلك الخارجي لأبي العالية الرياحي، يريد أن يتبرأ إعجابه بهذه الكراهة، وأن يرغبه في مذهب الخوارج، مما تزحزح أبو العالية عن معتقده في القوم، حتى إنه قال في تفسير ما وقع: «كاد الخسف ينزل بهم، ثم أدركتهم نظرة الله»!!

وكان من غروره وتعالمه أن الحسن البصري سأله مرة، يريد أن يتنبه عن دخوله فيما لا يحسن، فقال له الحسن: أخبرني عن رجلين خرجا في أمرٍ، فغشياهما ظلمة، فوقف أحدهما حتى انجلت الظلمة فمضى، وتقدم الآخر الظلمة، أحدهما أصوب رأياً؟ فأجاب بكل كبر وتعالٍ، حيث قال: أصوبهما عندي أخطأهما عندك!!!

أيها الشباب!

لا تغرنكم عبادة بغير علم!

لا يغرنكم أمر بمعروف ونهي عن منكر بغير علم!

لا تخدعنكم شجاعة وبأس في القتال على غير حق!

لا يستفزونكم ظلم السلاطين، إلى موافقة أصحاب إنكار الباطل بالباطل، كالخوارج!!

إنني لأحسب مرساس بن أدية لو كان بيننا، لكان زعيم داعش، بدلاً من البغدادي. أو لوصفه الشباب الجاهل المتحمس بأنه الشیخ المجاهد الغیور علی الحرمات!!

[1] يمكن مراجعة ترجمته في كل من: تاريخ خليفة بن خياط، الكامل للمبرد، تاريخ الطبرى، أنساب الأشراف للبلذري، تاريخ الإسلام للذهبي، وغيرها.

المصادر: